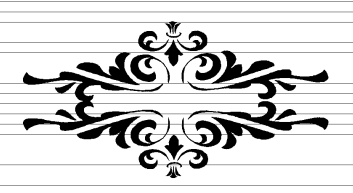


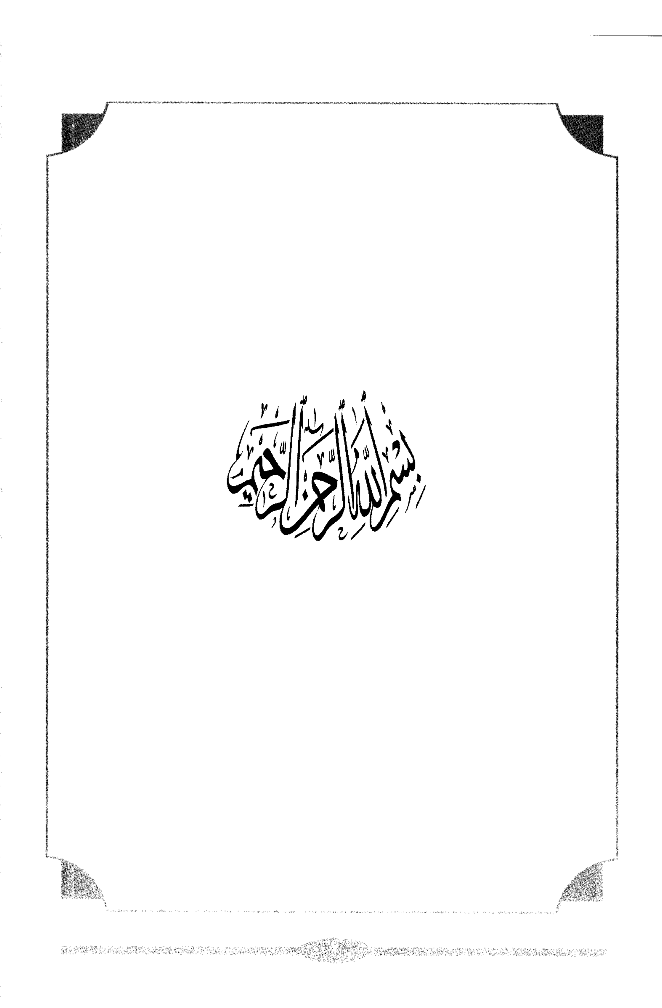
رثاء الزوجة

في الشعر العربي الحديث

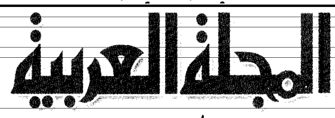


بقلم

حسني سيد لبيب


بسم الله الرحمن الرحيم

ثقافية . اجتماعية . جامعة



تصدر في المملكة العربية السعودية

رئيس التحرير

حمد بن عبدالله القاضي

هاتف: ٤٧٧٩٧٩٢

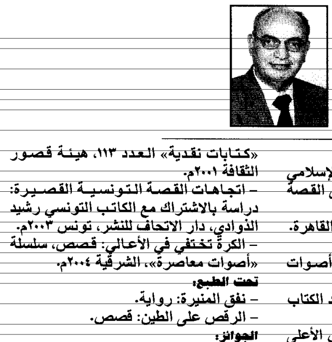
الرياض ـ طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) ـ شارع المنفلوطي

هاتف: ٤٧٧٨٩٩٠ **ناسوخ:** ٤٧٦٦٤٦٤

ص.ب ٥٩٧٣ الرياض ١١٤٣٢



الكاتب في سطور



الاسم: حسني سيد لبيب محمد

عضو اتحاد الكتاب، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، رابطة الأدب الحديث، نادي القصة في القاهرة.

تاريخ ومحل الولادة: ١٨/١١/١٩٤٢م القاهرة.

المؤلفات:

- حياة جديدة: قصص، سلسلة «أصوات معاصرة»، الشرقية ١٩٨١م.
- أحدثكم عن نفسي: قصص، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٥م.
- طائرات ورقية: قصص، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٢م.
- كلمات حب في الدفتر: قصص، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٣م.
- سبعون ألف آشوري: قصص مترجمة لوليم ساروبان، دار الصداقة للترجمة والنشر والتوزيع، حلب ١٩٩٤م.
- ابن عمي ديكران: قصص مترجمة لوليم ساروبان، دار الصداقة للترجمة والنشر والتوزيع، حلب ١٩٩٤م.
- الخفاجي.. شاعراً: دراسة أدبية، رابطة الأدب الحديث، القاهرة ١٩٩٧م.
- دموع إيزيس: رواية، مركز الحضارة العربية، القاهرة ١٩٩٨م.
- نفس حائرة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ١٩٩٩م.
- مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي بين الإنصاف والمغالطة: بحث، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض ١٩٩٩م.
- روائي من بحري: دراسة أدبية، سلسلة «كتابات نقدية» العدد ١١٣، هيئة قصور الثقافة ٢٠٠١م.
- اتجاهات القصة التونسية القصيرة: دراسة بالاشتراك مع الكاتب التونسي رشيد الذوادي، دار الاتحاف للنشر، تونس ٢٠٠٣م.
- الكرة تختفي في الأعالي: قصص، سلسلة «أصوات معاصرة»، الشرقية ٢٠٠٤م.

تحت الطبع:

- نفق المنيرة: رواية.
- الرقص على الطين: قصص.

الجوائز:

- جائزة المقال من مجلة «صوت الشرق» القاهرة ١٩٧٨م.
- جائزة القصة من «نادي شباب حلب»، حلب ١٩٨٦م.
- جائزة الرواية التاريخية من مكتبة الملك عبدالعزيز العامة عن رواية «صقر الجزيرة»، الرياض ١٩٩٩م.

نتاجه الأدبي:

يوالي نشر نتاجه الأدبي في الدوريات المصرية والعربية منذ عام ١٩٦٣م، منها صوت الشرق، الشعر، المساء، الأهرام، أخبار دمياط.. والدوريات السورية: الأسبوع الأدبي، الموقف الأدبي، المعرفة، الثقافة. والدوريات السعودية: الفيصل، المجلة العربية، القافلة، الخفجي، أحوال المعرفة. والدوريات الكويتية: البيان، الرأي العام. والدوريات اللبنانية: الأديب، الآداب. والتونسية: الفكر، الصباح، العمل، الإتحاف، قصص.

في البدء كلمة

الرثاء فن عربي أصيل، يرجع تاريخه إلى العصر الجاهلي، وتواصل عبر الأزمنة المختلفة حتى يومنا هذا. قد يتطور الرثاء في الشكل أو المضمون أو كليهما معاً. لكن يبقى الأثر الذي يحدثه في نفس المتلقي. يبقى انطباع الشاعر وجيشان أحاسيسة إزاء فقد عزيز. والرثاء تشيع فيه بالطبع أنات موجعة وآهات حزينة، لما كان للفقيد من مآثر وأياد ولما كان له من خلق رفيع وروح عالية.

ومن منظور آخر فإننا نجد أن الرثاء يبين عن وفاء لا تشوبه ذرة من نفاق، فماذا بيد موتانا أن يعطوه؟ قد يحرك الشاعر إلى الرثاء لوعة وأسى، أو تصدمه فجيعة الفقد والحرمان إلى تذكر المناقب. ولعل أعظم المراثي في تاريخ شعرنا العربي ما قالته الخنساء في رثاء أخيها صخر. وديوان الرثاء العربي زاخر بدرر شعرية إن عبرت عن شيء فإنما تعبر عن الوفاء والحزن معاً. وما دام الشعر مبرأ من المصلحة والمنفعة، عبر بصدق وشفافية، دافعه حب سام رفيع. ولا أحد ينكر نبرات الصدق في هذا اللون من الشعر. قد يردني قائل بأن الشاعر ربما يرثى من كان يتمتع بجاه أو سلطان، تقرباً لمن يخلفه من بني عشيرته، فهذا الوجيه توسد الثرى، وله أخ أو أب أو ابن، يود الشاعر أن ينتفع من ورائه.

فدبج درر الرثاء في عزيز قوم، والكلام موجه لهؤلاء القوم! مثل هذا الشعر نستطيع أن ننحيه من دائرة الاهتمام، طالما عرفنا بواعثه التي لا تتلاقى مع ما ننشده من لغة الصدق في هذا. لكن أغلب ما قيل في الرثاء عبر بصدق عن محنة الفقد ولوعته، ونتركم مع غرر من قصائد الرثاء لبعض الشعراء المعاصرين في هذا الباب.

- المجلة العربية -

مدخل

طرأت فكرة هذه الدراسة الأدبية، عن رثاء الزوجة، حين تفضل الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي بإهدائي صورة ضوئية من قصيدته «الزورق الحائر» التي نشرها في جريدة الأخبار.. وكتبها بعد وفاة زوجته، فتأثرت كثيراً بأحاسيسه الجياشة، كما أنها القصيدة الوحيدة مما نشر من أشعار، التي آثر أن يرسلها لي. هذا إن دل على شيء فإنما يدل على وفاء عظيم للزوجة الراحلة، وكان أحد فصول كتابي «الخفاجي.. شاعراً»[(١)]، عن محنة فقد الزوجة عند أديبنا الكبير، الذي نعى زوجته بقصائد أخرى عديدة ضمها ديوانه «أحلام الأمس»[(٢)]. ثم راودتني رغبة في كتابة دراسة مستقلة عن الشعراء الذين كتبوا في هذا المجال.. لكن صرفتني شواغل كثيرة إلى أن أيقظ الفكرة القديمة، صديقي الشاعر الراحل رابح لطفي جمعة، الذي توفيت زوجته في ٢٠ من يناير عام ٢٠٠٢م، فتركت في نفسه فراغاً كبيراً، وفي قلبه جرحاً لا يندمل، حتى أنه شبه حدث الوفاة بأنه «زلزال»هزه من الأعماق. وقرأت له في جريدة الأهرام قصيدة«إليك»، التي عبر فيها عن هذا الحدث المؤلم. لم يكتف بهذه القصيدة، بل دفعه الحزن عليها إلى نظم المزيد من القصائد، واجتمع له ديوان كامل سماه «لذكراك»[(٣)].

لم يكن رابح الشاعر الوحيد الذي أصدر ديواناً كاملاً في رثاء زوجته،إذ سبقه الشاعر عزيز أباظة بستين عاماء بديوانه «أنات حائرة»[(٤)]، الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٣م، كما أصدر الشاعر عبدالرحمن صدقي ديوانه «من وحي المرأة»[(٥)]، والشاعر الدكتور محمد رجب البيومي ديوانه «حصاد الدمع»[(٦)]،

---

(١) حسني سيد لبيب: الخفاجي -شاعراً- رابطة الأدب الحديث في القاهرة عام ١٩٩٧م، ١١٠ صفحات.

(٢) د. محمد عبدالنعم خفاجي: أحلام الأمس (الزورق الحائر)، ديوان شعر، رابطة الأدب الحديث في القاهرة عام ١٩٨٩م، ١٦٠ صفحة.

(٣) رابح لطفي جمعة: لذكراك، ديوان شعر، عالم الكتب عام ٢٠٠٣م، ١٦٠ صفحة.

٤- عزيز أباظة: أنات حائرة، ديوان شعر، ط٣، مطبعة مصر في القاهرة عام ١٩٥٦م، ١٩٢ صفحة.

(٥) عبدالرحمن صدقي: من وحي المرأة، ديوان شعر، الدار القومية للطباعة والنشر، سلسلة «من الشرق والغرب»، العدد ١٤٨، عام ١٩٦٥م، ٣٢٠ صفحة.

(٦) د. محمد رجب البيومي: حصاد الدمع، ديوان شعر، دار ثقيف للطباعة والتأليف في الطائف، طبع أيضاً في القاهرة عام ١٩٧٨م، إشراف عامر العقاد، ١٢٨ صفحة.

والشاعر طاهر أبو فاشا ديوانه «دموع لا تجف»[٧]. ومن قبلهم محمود سامي البارودي، وهو في منفاه في سرنديب (نفي إليها في ديسمبر ١٨٨٢م).. ومن بعدهم شاعر المرأة نزار قباني، كتب قصيدة مطولة في رثاء زوجته بلقيس التي راحت ضحية الغزو الصهيوني للبنان في الثمانينيات، لكن أسبقهم جميعاً الشاعر جرير الذي لم يمنعه هجاؤه للفرزدق من رثاء زوجته خالدة بنت سعد (توفي جرير سنة ١١٠هـ)، وفي هذا المقام تذكر الرحالة الأندلسي ابن جبير (٥٤٠-٦١٤هـ) الذي رثى زوجته عاتكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوقشي في جزء من مجلد، سماه «نتيجة وجد الجوائح في تأبين القرين الصالح» في مراثي زوجه أم المجد، فيما أشار إليه أحمد حسين الطماوي في مقدمته لديوان«لذكراك» لرابح لطفي جمعة (ص٤) كما تطالعنا قصائد أخرى في رثاء الزوجة لأبي تمام والشريف الرضي ومحمد بن عبدالملك الزيات والطغرائي وابن نباتة. ولعل في ديوان الرثاء العربي قصائد ودواوين أخرى لا أعرفها. وربما -أيضاً- في ديوان الرثاء غير العربي تجارب لشعراء لا يتكلمون العربية.

رثاء الزوجة

وإذا ما خصصنا نوعاً من الرثاء، هو المراثي التي قيلت في رثاء الزوجة، شريكة العمر، فلا شك أنه بفقدها يهتز الزوج ويتوجع، وتتصدع أعمدة البيت، ففقد الزوجة يؤثر تأثيراً مباشراً على الزوج والأولاد. وإذا كان الزوج شاعراً، فإن الشعر يواتيه أصدق ما يكون في تأبين رفيقة العمر. في الرثاء لوعة وأسى، برغم إيماننا بالموت قدراً مكتوباً لا مهرب منه، لكن ذلك لا يمنعنا أمام لوعة الفقد من التعبير عن جيشان الأحاسيس، وبث عبارات الأنين لفقد أحبائنا.

إن التشبث بالذكريات ملمح أساس في رثاء الزوجة، والجزع من الموت ملمح ثان، إذ لا نكاد نصدق أن إلفنا غاب عن نواظرنا، في ضجة لا ينهض منها. ويستدني الشاعر كل وسائل الصياغة يعبر بها عن واقع عاشه وانتهى بموت شريكة عمره.

إن الشعراء الذين نعنيهم في دراستنا هم الذين افتقدوا زوجاتهم، اللائي كن

(٧) طاهر أبو فاشا: دموع لا تجف، ديوان شعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة عام ١٩٨٧م، ٥٦ صفحة.

نعم الرفيق ونعم الشريك في رحلة الحياة، ولأنهم أدق إحساساً من غيرهم، فحجم الكارثة يكبر ويكون الشعر متنفسهم، فيكتبون عن المحنة التي يمرون بها، ويذكرون خصالاً حميدة لزوجاتهم. يرجعون إلى الذكريات، ليذكروا أشياء تجعلهم أكثر تعلقاً بمن غاب عنهم، على النحو الذي سوف نراه في أشعارهم.

ديوان «أنات حائرة» لعزيز أباظة

يبدأ الديوان بذكرى ميلاد الشاعر عزيز أباظة، فكتب قصيدة عن الأنس المفتقد برحيل زوجته. استهل قصيدة«يوم ميلادي» بقوله:

أقـــول والقلب في أضـــلاعـــه شـــرق
بـالدمع لا عـــدت لي يا يوم مـــيـــلادي
نـزلت بي ودخـــيل الحـــزن يعـــصف بـي
وفـــادح البث مـــا ينفك مـــعـــتـــادي
وكنت تحـــمل لي والشـــمل مـــجـــتـــمع
أنســـاً يفـــيض على زوجي وأولادي
فـــانظر تـر الدار قـــد مـــادت جـــوانبـــه
وانظر تجـــد أهلهـــا أنضـــاء أجـــســـاد
فـــقـــدتهـــا خلة للنفس كـــافـــيـــة
تـــكـــاد تـــغـــنـــي عـــنـــاء بـــالمـــاء والـــزاد

ويقول:

تحنو علي وترعـــــاني وتبـــسط لي
في غـــمـــرة الرأي رأي الناصح الهـــادي
مـــال الزمـــان بنا لما أحـــيط بهـــا
في ســـاعـــة لا فـــدى يغني ولا فـــادي

واسترسل في ذكر وحشة الدار بعد رحيلها، وأنه بفقدها ذاق اليتم هو وأولاده. وفي مقطوعات«توقيعات» ينصح بنيه بالصبر. نكبت زوجته زينب بتوالي فقد إخوتها في ريعان الشباب، يشير هذا في قصيدة أمنية:

ومـــرزوءة في أهلهـــا دك ركنهـــا
شـــقـــيـــقـــة نفس غـــوضـــرت وشـــقـــيق

وفي قصيدة الزيارة الأولى، يعبر عن محنة الفقد فيقول:

وقــــفت أناديهـــا وأهتف باســــمــــهـــا
وألحفُ حــــــــتى أوشكت تتكلم
وقلت لهـــا: يا زين مـــا من فــجــيــعـــة
تعــــاظمني إلا وفــــقـــــدك أعظم

يتذكر الأيام الخوالي، والديار التي شهدت صباهما، في مدينة ميت غمر، وينهي قصيدة الذكريات من أطياف الماضي بالبيتين:

يا زين والدنيـــا تغـــيــــر أهلهـــا
والنـــاس رهـــن تــقــلـــب الأيـــام
أقـــســــمت لا آوى لغـــيـــرك خلة
عـــهـــدي إليك على المدى وذمـــامي

وفي قصيدة وحي الغروب، توصيه بالأولاد خيراً، لما أحست بدنو الأجل، كما أبان عن جزعه لفراقها، ويسأل في أسى: كيف خلفتني أصلى عذاب الحريق؟

وتعد قصيدة ذكريات من أجود قصائد الديوان، لأن الشاعر استحضر في مخيلته صورة الفقيدة، وأبان عن تذكرها في كل مناسبة، حيث تشخص أمامه بعد رحيلها، فيقول:

أراك كـــــمـــــا رأيتك يوم كنا
على حـــرم الصـــبـــا نضـــحي ونمسي

ويسترجع نشأتها في بيت كرم، ثم النوازل التي أثرت عليها، حين مات أخوتها الخمسة واحداً تلو الآخر، فيخاطبها في أسى:

فـــمـــالوا كـــالنجـــوم الزهر خـــمـــســـاً
ومـــا كـــانوا وحـــقك غـــيـــر خـــمس
حـــملت مـــصـــيـــرهم فـــضنيت حـــزنـــاً
فـــرحت شـــهـــيـــدة، تفـــديك نفـــسي

ويذكرها الشاعر عندما يلتفون حول المائدة ويظل مقعدها شاغراً. فتدمع عيونهم، ويرون الكرسي (أملاً قفاراً). طفق يبين حيرة الأب مع أولاده. ومهما بذل من عطف فلن يغنيهم عن حنانها شيئاً. كما أبان ما تحملته الزوجة في

رعاية بني أخوتها وتعويضهم عن فقد آبائهم، حتى سمى «زين» -كما كان يناديها- بأم اليتامى. يتحدث عن مصاحبته لها ومرافقته في كل أمور الحياة حتى قال عنها:

فـــقــــدتك زوجـــة، وأخـــاً وأخـــتـــاً
وأمـــــــا بـــرة، وأبـــاً وخـــــــدنـــاً

وذكر أياديها في البر باليتامى، ومشاركتهم أوجاعهم وآلامهم، وكرر خطابه إليها بندائه الأثير إلى قلبه يا زين ست عشرة مرة، والنداء مشتق من اسمها زينب، الخطاب الشعري يناديها من عالم الغيب بتلقائية مثلما كان يناديها في حياتها. للنداء صداه المحبب، فهو يقربه إليها. النداء بعد الممات هو النداء نفسه قبل الممات. هذا ألصق لتقريب الصورة، أو استحضارها إن صح التعبير. ثمة نداءات أخرى لكنها لا تستخدم إلا مرة واحدة، أو مرتين، أو ثلاثاً على الأكثر، مثل: يا أم واثق، ويا أخت، وأنت و يا أم اليتامى و يا هجعة العين ويا قبلة الطل ويا همسة الشاكي. كما أن النداء بـ زين ينم عن واقعية النداء، وقرب طيفها منه. النداء أقرب إلى حسه المرهف، وزاده قرباً أنه مشتق من اسمها، فأصبحت زينب كأنها شاخصة قبالته. يناديها من عالمها، طيف حبيب لا يفارق مخيلته. أما النداءات الأخرى فتعبر عن صفات زين فهي الأم يا أم واثق، وهي الأخت يا أخت، وهي راعية اليتامى يا أم اليتامى، وهي سكنه وصفاؤه يا هجعة العين، وهي الوداعة والأثر الجميل يا قبلة الطل، وهي سلواه ومغناه يا همسة الشاكي، تتعدد مستويات الخطاب الشعري لكن زين هي الخطاب الجامع لها كلها. لذا فهو أقرب إليه حين يخاطبها، وأسلس لوزن البيت الشعري حركتان بينهما ساكن. وحين يحدث عنها بضمير الغائب يصفها بأدق وصف إذ يقول في قصيدة أمنية:

وزينـــب لـــي أنـــس وأمـــن ورحـــــمـــــة
وهـدي، وعـــــرف ســـــاكـب، وصـــــديق

الملاحظ على قصائد عزيز أباظة في أناته الحائرة تكرار كلمة ذكرتك حين تتعاقب الذكريات وتتوالى كمناظر فيلم سينمائي وتتسابق الخواطر في مخيلته. نقتطف بعضاً من هذه الأبيات من أماكن متفرقة من قصيدة ذكريات:

ذكــــــرتـك عـنـد كـل جـلـيـل أمـــــر
وكـل يـســـيـــره فـــبـكيت نـفـــســي

تذكرني بك الصور التوالي
فينشطر الفؤاد بها انشطاراً

ويتذكرها حين يصاب أولاده بمرض، فيجد نفسه غير قادر على رعايتهم بالطريقة التي كانت ترعاهم هي بها:

ذكرتك عند وعكتهم فأمسي
أعاني لوعة وأذوق ناراً

كما يذكرها حين يجد اليتامى الذين كانت ترعاهم قد افتقدوا الملاذ الآمن:

ذكرتك زين في دمع اليتامى
وقد فقدوا بك الكهف الحفيا

حين يذكر ابتلاء الفقد الذي مني به، يذكر ابتلاؤها بفقد أخوتها واحداً فآخر، وهم في ريعان الشباب، فيشيد بإيمانها وصبرها. يتكرر ذكره لمحنة فقد الأخوة، كأنه يضمن ديوانه رثاء آخر يقوله عوضاً عنها! وفي قصيدة على عرفات يعبر عن المحنة التي مرت بها فيقول:

أخ فأخ ثان فأخت فثالث
تهاووا دراكاً كالنجوم الزواهر

الخطب الذي استنفر الشاعر إلى نظم ديوان كامل في رثائها، وجعله يقول في قصيدة نجوى:

ومال عمود البيت وانفض أنسه
وزالت كما زال الربيع المفوف

قد استنفر أيضاً إلى الاحتفاء بذكراها بطريقة كانت ترضيها، برعايته الأولاد والعناية بشؤونهم. عمود البيت هو الدعامة الأساسية لرسوخه وتماسكه. ورحيلها ليس مجرد شرخ في جدار البيت، إنما هو خلخلة في أساس البنيان، أدى إلى ميل العمود. وهي بلاغة في الصياغة الشعرية في وقت لا يعرف فيه بناء العمائر بالأعمدة الخرسانية إذا ما رجعنا إلى تاريخ كتابة القصيدة في أكتوبر ١٩٤٢م.

مأساة الموت عند عزيز أباظة، تتجسد في زوجته التي عانت محنة فقد أخوتها قبل أن تموت هي. وأدت رسالتها على أكمل وجه، مخلفة له أولاداً هم خير عزاء.

ديوان من «وحي المرأة» لـ(عبد الرحمن صدقي)

ينقسم الديوان إلى ثلاثة أجزاء، الأول بعنوان« الحب أقوى من الموت»، والثاني«عود على بدء» والثالث«الرحلة إلى إيطاليا» في الجزأين الأولين رثاء مرير، وفي الثالث وصف للرحلة التي قام بها إلى إيطاليا. وإن راوده طيف الراحلة أحياناً قليلة.

في قصيدة الصرخة الأولى، يكتب تمهيداً يقول فيه إن مصابه في زوجته الشابة المثقفة الطيبة الخلق شريكة حياته ورفيقة دراساته. يستهل القصيدة بقوله:

كـــان لـي في أخـــريات الـــــ
عـــمـــر بيت فـــعـــدمـــتـــه

وفي قصيدة الواقعة يخبرنا بإصابتها بحمى أودت بها، رغم دعوته لأطباء أفذاذ، وسهره لرعايتها. يصف تعلقها به في محنة المرض، حتى وافاها الأجل فيقول:

ويغضبها أني - وقد ساء حالها -
على النفس من شغلي بها لست أشفق
وتلمس أرداني، وتلهو بأصبعي،
وتضغط كفي كفها وهي أرفق
وتوسعني لثماً، وتمسح خدها
بخدي وكل بالدموعين مغرق
وما نسيتني في سبات وصحوة
وقد ذكرتني وهي في النزع تشهق

صورة شعرية بليغة للزوجة التي تعاني سكرات الموت، لكنها لا تألو جهداً في الإعراب عن حبها لزوجها، حتى النفس الأخير! اتشبيهات واستعارات وأحاسيس ومشاعر نقف عندها في كل شطر، وفي كل كلمة، الصورة التي رسمها الشاعر غنية عن كل بيان بليغة من غير تفسير. وحسبي الإشارة إلى ما قاله توفيق الحكيم للكاتب في رسالته: هذا شعر لا يصنع ولا يكتب، ولا يظهر في كل حين، ولا يجود به كل شاعر(٨).

(٨) من وحي المرأة، رسالة من الأستاذ توفيق الحكيم، نشرها الشاعر في الديوان، ص٢٤.

صورة أخرى في قصيدة ذكرى تحاكي واقع الشاعر الذي ينبهه الأصدقاء بأنه يكتب القصائد كل يوم. قد تكون أحداثاً عادية، إلا أنها غلفت بوشاح رقيق من الأحاسيس المرهفة:

تعجب أصحابي وطال سؤالهم
يقولون لي في كل يوم تقصد!
وما كان أغناهم عن القول لو دروا
بأني طوال الليل يقظان مسهد
وكنت عروسي في الحياة فلا تني
عروس قصيدي تلهمين وأنشد

يقول صدقي في قصيدته في الوحدة:

وأذكر في ليل أطلت تغيبي
إذا هي كالثكلى وبيتي مأتم
يهدئها الأهلون - أهلي- تعقلا
ولكنها مجنونة القلب تلطم
بكاء كما لم يبك إلف أليفه
ويخنقها منه النشيج المكتَّم
ولما رأتني جنت جن جنونها
وزاد ارفضاض الدمع، والعين تبسم
وتعتب في رفق، وتمسح منكبي
وتلمس أوصالي كمن يتسلم

تؤلف الأبيات السابقة صورة شعرية جديرة بالتأميل والتفكر في حال النفس البشرية وتقلباتها.. تصف حال الزوجة حين تأخر زوجها، فتبدو وهي تنتظره كالثكلى، رغم تهوين أهل الزوج لها من أمر الغياب، ملتمسين له العذر، فما منعها ذلك من الاستغراق في البكاء خوفاً عليه.. كما لم يبك إلف أليفه.. وحين عاد زاد ارفضاض الدمع، والعين تبتسم.. المقابلة خلقت نوعاً من الجمال الأخاذ.. إذ زاد هطول الدمع بفرحة المجيء، وتبتسم العين لرؤيته. الدمع والابتسام صنوان متناسبان لموقفها حين أطمأنت على مجيئه، وتراوحت حالها بين دموع الفرح، وابتسام العين.

نقف عند القصيدة الجنائزية طريقي، وأسميها جنائزية لأن الطريق هنا يذكر الشاعر بالجنازة التي مرت منه.. فانقلب الحال بالشاعر، بعد أن كان الطريق يسير فيه إلى بيت سعيد، حيث دنياه بما فيها من غرام ونشوة وفردوس.. تبدل الحال وانقلبت الأوضاع فأصبح الطريق إلى البيت مغبراً، كأنه يدفعه إلى القبر. القصيدة فيها تكرار لكلمة طريقي أشاع الغنائية الممزوجة بالشجن، لذا صح تسميتها جنائزية، يبدؤها قائلاً:

طريقي إلى بيتي؟ نعمت، طريقي
إلى خير محبوب وخير رفيق

ويختمها قائلاً:

قطعت، فأوصل شائقاً بمشوق
وإلا، فتعساً لي، وتعس طريقي

الطريق هنا رمز للحياة المتقلبة، كان طريقه إلى نعيم حياة هانئة مع محبوبته، فأصبح طريقه إلى بيت كالقبر المظلم!

في قصيدة في البيت، يوجه الشاعر خطابه إلى غرفة الراحلة، الموصدة، مستعيداً الذكريات، وفيض الحنان الذي كانت تفيض به عليه.. ويبتئس لاستحالة لقائه بها. يخاطبها في لوعة وأسى:

شريكة عيشي، أسفر الصبح فاطلعي
أعدي فطوري وانتقي لي حلتي
مكانك خال في الخوان فأقبلي
فيهنا طعامي من حديث وطلعة

نظم عبدالرحمن صدقي قصائد الرثاء في فترة لا تتجاوز شهراً وبعض شهر، وكان قد هجر الشعر سنوات عديدة، وعاد إليه ليرثي زوجته، كل شئ يذكره بهاء البيت بغرفه ومحتوياته ومقتنياته، حتى إذا لجأ إلى كتبه، وجد طيفها يقفز إلى الخاطر. يقول في صورة شعرية خلابة في قصيدة حيرة:

وتمتد كفي نحو سفر أريده
فترجع كالملدوغ مسته عقرب
فهذا كتابي، رب! هذا كتابها
قرأناه نستقصي معاً وننقب

تنتابه الحيرة فبات لا يعرف بالضبط إن كان كتابه الذي تمتد كفه إليه أم كتابها، وعبر عن الفزع بالملدوغ عضته عقرب! وفي قصيدة خيال، يتخيلها ماثلة أمام عينيه:

تمثلتها قربي تطالع سفرها
وتشركني في علمها وتناظر
تمثلتها وسنى تغالب نومها
فقد طال درسي وهي يقظى تساهر
تمثلتها جدلى، وكل سرورها
بأني إلى مستشرف المجد سائر
تمثلتها تسعى أمامي لحاجتي
ومبذلها وشي من الخز فاخر

تكرار الفعل «تمثلتها» يكثف الإحساس بواقعية المشهد الشاخص في خيال الشاعر، أو يزيدنا قرباً منه. وفي كل تكرار للفعل، يقدم صورة مبهرة خلابة. الخطاب الشعري هنا يتحدث بضمير الغائب، موحياً للمتلقي بأنه واقع. وينتقل إلى ضمير المخاطب في أبيات أخرى، يخاطب الراحلة الزاهية صورتها في مخيلته، نقرأ منها:

وألقي في روعي بأنك ها هنا
وحدثت: هذا طيفك الآن زائر

المراوحة بين ضمير الغائب والمخاطب يعطي للصورة الشعرية حركة ذات دلالات، تفيد في تغذية الخط الدرامي وتعميقه. تحدثنا الأسطورة الفرعونية عن إيزيس التي مات زوجها ففاضت دموعها، وأصبح حزنها عليه مضرب الأمثال. وشاعرنا يستحضر صورة إيزيس ويرى أن مياه النيل هي مسبل دموعها. يقول في قصيدته على النيل:

وحسبب لي المبكى على النيل أنه
مسيل دموع من قديم تحدر
دموع لإيزيس على فقد زوجها
وقد نذرت تبكي إلى يوم ينشر
وإني هذا الإلف يبكي أليفه
بفيض على الأيام يسخو ويغزر

دمــــوع وفــــاء أنت يا نيل رمـــزه
ومن مـــثل هذا الدمع أنت تفـــجـــر

في قصيدة كيف أعيش ينسج حوارية بينه وبين الراحلة:

تقــولين في عــتب المحب: أشــاعــر
ومـــا جـاءني منك النسـيب المحـــبب!
لقــد كنت في شــغل بشــخـصك شــاغل
فــهـــأنذا من بعــد مــوتك أنسب

وكان من عادة الشاعر إهداء نسخة من مؤلفه، مرصعة بكلمة إهداء إلى زوجته، وبعد موتها حافظ على التقليد. يقول في الكتاب الأخير:

شـــريكـة درسي، لا أرى عنـك سلـوة
فـــإنـك طرز لا أرى لـك ثـانـيـــأ
ومـــا عـــجب أن ظل وحـــيك باقـــيـــأ
فـمـــا زلت بعـد الموت ملء حـيــاتيــا

وشعره كثير عن الموت الذي يختطف أحباءنا، تواتيه النزعة الإيمانية والتسليم بمجريات القدر، مثال ذلك ما قاله في قصيدة العام والخاص:

قـــضى الله هذا لا مــــرد لحكمـــه
وكـيف اختـيـار العـبـد فـيمـا قضى الله

اختطف الموت أعز ما يملك، وكان يتمنى أن يسبقها هو، لكنها مشيئة الله. وفي لحظة ضعف بشري، قال في قصيدة دنيا ودنيا:

ويـا زوجـــتي قـــد كنت كل ســعـــادتي
فـمـــا ضـــر لو أبقت عليك شـعــوب

وشعوب: المنية، وإن كان الحزن على فراق الحبيب يجعل الشاعر يجنح في أفكاره، انسياقاً وراء الحزن الجارف، إلا أننا جميعاً في النهاية نسلم بما يخبئه القدر، وإن كنا في حالة من الضعف إزاء فراق الأحبة.

يقول العقاد[9]: فليس أكثر مما نظمه الشعراء في التغزل بالمرأة، ولا أقل مما

(9) من وحي المرأة، مقال: من وحي المرأة للأستاذ عباس محمود العقاد، نشره الشاعر في الديوان ص١٢٧.

نظموه في الحزن عليها. وعن ظاهرة الحزن التي استبدت بالشاعر، يعلق ابراهيم عبدالقادر المازني بقوله(١٠): فليس بإنسان من لا يحزن.

تتميز مراثي عبدالرحمن صدقي ببراعة الاستهلال، التي تجذب المتلقي إلى قراءة القصيدة كلها، أو أن يكون في حالة حضور، تلك قمة الوشيجة بين الشاعر والمتلقي، مثلما نقول: إن الممثل المسرحي في حالة حضور بمعنى أنه أجاد أداء دوره حتى أنسانا أنه يمثل.

المثل نضربه عن براعة الاستهلال في قصيدة الفردوس المفقود التي يقول في مطلعها:

بحسبي وحدي كان قلبك يهتف
ولي كان منك الناظر المتشوف
وبي دون أهل الأرض أنسك كله
كأن رحاب الأرض دوني صفصف
فخور على الدنيا بأنك زوجتي
وما أنا قارون ولا أنا يوسف

في البيت الأول يبين تعلق الزوجة به دون سواه. وفي الثاني تراه دنياها وعالمها المنشود. وفي الثالث يفخر بها، بمن تحبه كل هذا الحب، رغم أنه ليس في غنى قارون ولا في جمال يوسف، كل بيت يكمل ما قبله فيعمق الفكرة، ويثري الوجدان أكثر فأكثر. كما أن كل بيت يكون وحدة مستقلة. الصورة الجمالية تحلو وتجلو كلما أضفنا بيتاً لها، وهذا من جماليات النص الشعري عند عبدالرحمن صدقي.

نقف أمام الموت عاجزين لا حول لنا ولا قوة. لا نملك دفعاً للأجل المحتوم. إلا أن الوساوس تلهب صدورنا بأنه ربما قصرنا في علاج، أو سؤال طبيب. هي لحظات ضعف تنتاب الشاعر كما تنتاب غيره في مثل هذه الظروف، لكن الموت واقع لا محالة. عبر صدقي عن تلك اللحظات قائلاً في قصيدة وسواس:

يعاودني الوسواس يا طول وسواسي
إذا جد ذكر للدواء وللآسي

(١٠) من وحي المرأة، كلمة للأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني نشرها الشاعر في الديوان ص١٣٣.

يساورني الوسواس أني مقصر
ولولاه لم تمسى رهينة أرماس
عذابي نطس في الأساة جهلته
كأن الأولى آسوك ليسوا بأنطاس

والآسي: الطبيب، والنطس: الطبيب الحاذق. إنه لا يعترض على مشيئة الخالق، لكنها لحظات ضعف هيمن فيها الوسواس، فأوعز له أنه أتى بطبيب غير فاهم لمهنته، وكان يمكنه إحضار طبيب حاذق.

كلما واجه الشاعر شأنا يمسه، عبر عنه شعراً.. على هذا المنوال نظم قصيدته وفاء الشعراء يمهد للقصيدة بقوله: قضايا القلوب لا يحكم فيها غير علام الغيوب. فبعد ما أشاد الناس بوفائه للزوجة الراحلة، وكتابته المراثي، وبعد ما أقسم على أن يعيش على ذكراها، إذا بنفر يلومونه على زواجه بأخرى، فيتوجه بحديثه إلى هؤلاء الناس:

أجل، قد أعرس الرجل المعنى
ولكن، هل نفى هذا الوفاء؟!
دعوا القلوب لمن يراها
ويعلم غيبها وكفى مراء

استجدى الشاعر كل وسيلة يعبر بها عن الفقد وقسوته، حتى أنه كتب نثراً وضمه إلى الديوان عن حلم ليلة من ليالي الصيف، حكى الحلم كما رآه. وفي مقال ثان حاول تفسير الحلم، تلاه أستاذ التحليل النفسي الدكتور عبدالعزيز القوصي الذي تناول الحلم بالتفسير في ضوء علم النفس. كل هذا ينم عن تعلقه الشديد بالراحلة. وحتى لا تتشعب بنا السبل، نلخص رأي القوصي في أمرين.. أحدهما أن زوجة عبدالرحمن ما زالت حية في نفسه. فهو إما أن يعيش معها وهذا محال، وإما أن يعيش مع غيرها وهذا محال قطعاً. والأمر الثاني ما لأم عبدالرحمن من مكانة قوية بلغت من قوتها درجة تغني عن المشاركة ولا تحتملها، خصوصاً وقد ضمته إلى صدرها وأعادته إليها عندما أدبرت عنه الزوجية الهنيئة[11]. ما يعنينا في هذا، أن الحلم ترجمة لحال الشاعر شديد التعلق بالزوجة الراحلة. كما أن

(11) من وحي المرأة، كلمة «التحليل النفسي والأحلام» نشرها الشاعر في الديوان ص٢٢٧.

الشاعر يستجدي – أو يرجوها– وهي في دار البقاء، أن تدعو له كما كانت تدعو في حياتها، نجد هذا في قصيدة ذكرى دعاء. وفي قصيدة وقفة على قبر، يشتد به الوجد قبل سفره فيتوجه إلى قبرها ويأمل في أن تدعو له:

دعــــاؤك أبغـــيـــه وإن كنت مـــيـــتـــة
رهـيـنـة رمس غـــــيــــــر أني آمـل

دعــاؤك يا زوجي الحــبـيــبــة في الثـــرى
أحس بـه يـغــــزو الثــــرى ويحـــــاول

لقد بلغ الوجد مداه، فأسال مداد قلمه في أمور كثيرة، حتى مثلت الزوجة في خاطر المتلقي، مثل روائي برع في رسم شخصية، فتمثلناها حية وحتى نجد أنفسنا نشاركه الحزن على فقدها..

مأساة الموت عند عبدالرحمن صدقي أن الزوجة الراحلة زميلته في مهنة الأدب، مثقفة مثله، فوجد في موتها فراق إلفه الذي يرتاح لمجالسته. كما أن مرضها الشديد حار فيه مثلما حار رابح لطفي جمعة في مرض زوجته، مهما استدعى من أمهر الأطباء.

هذان الشاعران

يختلف الخطاب الشعري بين الشاعرين عزيز أباظة وعبدالرحمن صدقي. فإذا كان الأول ينادي زوجته باسمها، نجد الثاني لا يذكر الاسم ولو رمزاً.

أما الصياغة الشعرية عند عبدالرحمن صدقي فتعتمد على الصور والأخيلة الموحية بالمعنى والشعور، فتكون أشبه بلوحة فنية متناغمة الألفاظ متساوقة المعاني. بينما تعتمد صياغة عزيز أباظة على جزالة اللفظ واللجوء إلى ألفاظ غير مألوفة، يعيد إحياءها في قالب شعري جيد السبك. والشاعران بلغا بما نظماه في رثاء الزوجة شأواً كبيراً كل بطريقته.

يجهر عبدالرحمن صدقي بالحب النامي في فؤاديهما، ولا يتحفظ تحفظ عزيز أباظة.

يصف عزيز أباظة قصائد عبدالرحمن صدقي في الرثاء بأنها ليست قصائد بالمعنى المفهوم، ولكنها دموع العين والقلب معاً تقطر في أصدق تعبير وأشرفه، ولكنها الحشاشة الذائبة والنفس المنصهرة تترقرق في أنصع الشعر وأسماه(١٢).

---

(١٢) من وحي المرأة، ص٥٩، رسالة عزيز أباظة المنشورة في ديوانه.

وإذا كان عزيز أباظة لا يحفل بوصف زوجته مكتفياً باسترجاع ذكريات من حياتهما الزوجية، نجد الغزل يشيع في شعر عبدالرحمن صدقي، ليس غزلاً حسياً، إنما غزل يستوحش صاحبه ويلوم الردى الذي اغتاله! غزل صورة ماثلة عالقة في مخيلته لا تفارقه. غزل متشح برداء السواد وقاراً وحسرة. غزل من نوع غريب، في الأحبة الذين فارقونا! غزل ليس فيه رغبة حسية، إنما غزل راق يتسامى على كل ما هو مادي في دنيانا.

يتشابه الشاعران في أن وفاة الزوجة دفعتهما إلى طبع ديوان كامل في رثائها، وهو إحساس طيب غير شائع في الشعر العربي. ولعل أباظة فتح الطريق لصدقي للسير على نهجه، تلاهما شعراء آخرون فيما أوضحنا في صدر الدراسة. كما يتشابه الشاعران في السفر إلى الخارج وتذكر الفقيدة في الغربة. أباظة سافر للحج، وصدقي إلى إيطاليا.. وتأثرا بالأماكن التي تنقلوا فيها، إلا أن طيف الزوجة الراحلة لم يزل عالقاً في فؤاديهما. وإن كانت جرعة التذكر أكبر عند أباظة، بما أملاه الجو الروحاني.

ديوان «حصاد الدمع» لـ(محمد رجب البيومي)

ضم الديوان أربعاً وعشرين قصيدة. كتب على الغلاف تعريف بمضمونه: ديوان خاص برثاء الحبيبة الراحلة، وأهداه إلى روح زوجته. قال في الإهداء: إلى روح زوجتي الطاهرة الشابة (عصمت أحمد عبدالمالك) في فردوسها البهيج. كتب مقدمة للديوان في خمس صفحات، وفي آخره كلمة الناشر عبدالرحمن المعمر تعقيب ختامي في أربع صفحات.

يبدأ الديوان بقصيدة رحيل مفاجئ حيث تلقى صدمة موتها كصاعقة مدمرة، فعجز عن الصراخ وغاب وعيه! وحين عاوده الوعي، احتار وتردد في نقل النبأ إلى أولاده الأطفال. وفي قصيدة أكباد أطفالي يطالعنا بيت يستعير فيه بيت جرير الذي يقول فيه:

لولا الحـيـاء لـهـاجني اسـتـعـبـار
ولـزرت قـبـرك... والحـبـيـب يـزار

أما البيومي فيقول:

أكـبـاد أطفـالي كـفـفت مـدامـعي
ورأيتكن فـهـاجني اسـتـعـبـار

والمعنى مختلف في البيتين.

فيسأل الموت في مرارة:

لم يا حمام فجعتهم برحيلها
وهمو فراخ في العشاش نثار

يكرر القول في مواضع مختلفة عن صغاره الذين دفعوه إلى الحزن، أو أنهم أثاروا الجرح، يقول في هذا:

وأرى دموعهم تفيض فتقتدي
عيني بهم، ويسوقني التيار

وأرى أن الشاعر جارى أولاده في حزنهم. الحزن عند البيومي منقول إليه من الأولاد، وافد عليه من الصغار.

نقف عند قصيدة (يقولون ماما).. عنوان آسر ،يبلغنا به عن سؤال حائر لأطفاله يعجز عن الإجابة عنه. صيغة الفعل الجماعي (يقولون) أثار حشداً يعجز عن مواجته، من فلذات أكباده الذين يذكرون أمهم في كل موقف يتعرضون له.. وبراعة الاستهلال التي لمسناها في رثاء عبدالرحمن صدقي، نجدها تتألق في هذه القصيدة، التي أملاها حسَ البيومي المتقد بجمر الفراق. يقول في مطلع القصيدة:

يقولون ماما كلما عنّ مشكل
وأولى بهم أن يسكتوا لو تعقلوا
يقولون ماما ما الذي أنا صانع؟
ومن دون (ماماهم) تراب وجندل
يصيحون بي هلا ذهبت تعيدها؟
كأني برد الراحلين موكل

لاحظ كلمة (ماما) وتطويعها للسرد الشعري (ومن دون ماماهم)، بالإضافة إلى تكرار النداء المحبب لكل طفل، بما يضفيه على البناء الفني من شجن وصدق.

مأساة الموت تدفع الشاعر إلى التعبير عما تجيش به نفسه. موت الزوجة هو القاسم المشترك بين الشعراء الراثين زوجاتهم. لكن المأساة تأخذ مسارات مختلفة. عمق المأساة عند البيومي يتجسد في صغاره الذين يبكونها ويطلبون مرآها، فيقف حائراً عاجزاً. تتجلى عمق المأساة في عيون صغاره، فترتد إليه حسرات ودموعاً. نلمس عمق المأساة في أنه أصبح بفقدها يتحمل أعباء الأمومة والأبوة معاً.

في قصيدة «مصرع الشمس»، يأسى على الزوجة الشابة التي غيبها الثرى. يطرح تساؤلات لا ينتظر لها إجابة من أحد، فالتساؤل تعبير عن الحسرة والفقد:

أذاك الجـــــبين الـطـلق يطـفــــأ نوره
وكــــان يشع الحــــسن في عــــالم الإنس؟
أذاك الـقــــوام الـلدن يقـــصـــــفـــه الردى
وكـــان نضـــيــد العـــود مـــزدهر الميس؟
أهذا الـصـــبــا الـفــينان يطمس في الثــرى
بـأعـــجل مـــا تدهى المقـــادير من طمس؟
أهذا مـصـيـر الحـسن في الكون؟ ويحـــهـــا
شـــجـــونا دعت أهل التـــفــاؤل لليـــأس!

وإن كان في البيت الأخير إنشاء واستطراد حوله إلى نثر يفتقر إلى المحسنات البديعية.

بعد انقضاء عام على وفاتها ,ماذا يقول الشاعر في هذه الذكرى؟ هل تخف حدة الحزن عنده، أم نار الوجد لم تزل مشتعلة؟ الذي لاحظته في قصيدة «بعد عام» أنها أخف حدة، وإن شكا النأي والفراق ,وتحدث عن الآلام وجراح القلب، لكن الشعر يطاوعه أكثر في رباعياته التي تقترب من الغنائية، وللصياغة الشعرية دخل في هذا.. المشهد بعد عام، لا يذكر صغاره وسؤالهم عن (ماماهم)، ولا اشتكى عن الأمومة تثقل كاهله مع أعباء الأبوة، إنما اقتصر على الحديث عن الفراق الذي أضناه. وفي نهاية القصيدة تمنى أن يلقاها في دار البقاء.. «أبكيك حتى أنتهي إليك».

ديوان «أحلام الأمس» لمحمد عبدالمنعم الخفاجي

ينضم الشاعر الدكتور محمد عبدالمنعم الخفاجي إلى ركب الشعراء الذين رثوا زوجاتهم بقصائد تنم عن إحساس مرهف،ولفحة حزن ألمت به بعد فقد شريكة العمر. ماتت زوجته في الثالث من أغسطس عام ١٩٨٧م، فرثاها بقصيدة فريدة عبرت عن الوفاء والترابط والتآلف. ترده النزعة الإيمانية إلى مشيئة الله التي تعلو فوق كل مشيئة. وفي قصيدة «الزورق الحائر»، نقف معه عند تساؤلات عديدة، تعكس محنة الفقد، والأزمة التي يمر بها. يستهل القصيدة بقوله:

غــــاب عني وجـــــهك المشــــرق غــــابا
أصــــبــحت من بعـــدك الدنيـــا ســـرابا

يعبر الفعل «غاب» عن الإحساس الفطري لإنسان فقد عزيزاً، وتكراره ينم عن اللوعة والألم.

يتحدث في البيت الأول عن وجه مشرق غائب!.. كان يصطفيه ويقاسمه الحياة أربعين عاما. لكن يتبدل إحساسه في البيت الثاني، فيرى أنها عالمه كله، وليست فرداً واحداً. هي كل الناس، فعبر عنها بصيغة الجمع «ذهبوا ليتهمو ما ذهبوا». وسرعان ما يفيق إلى أن الموت حق، وأنها مشيئة الله:

كان ما كان، وشاء الله أن
يطوي البين المرير الأسبابا

ويطرح تساؤله: لم ولى؟ ولم غاب؟ ثم ترده النزعة الإيمانية ليجد الإجابة حاضرة، فيردد وقد عاوده هدوء نفسي:

حكمة الله، تعالى الله، وما
شاءه كان، ويحيى الأصلابا
هو أدرى أننا نجهل حكـ
ـمته العليا، ولا ندري الصوابا

ويناجي الفقيدة بنداءات مختلفة: «يا زماني ، يا حياتي، يا ملاكي». كما أنه مغرم بالتكرار حين يعدد مناقب ومآثر الراحلة. يبدأ أبياته بفعل الكينونة في صيغة الماضي «كنت..» في ستة أبيات متتالية. التكرار هنا، يكثف الصورة الفنية، ويبين وقع المصاب لدى الشاعر المصدوم. يذكرها «ليلة العيد»، متأسياً لفراقها منذ عام(١٣):

ليلة العيد ما تزال بذكرا
ها لظى في فؤادي المستهام
في دجاها ودعت أغلى كنوزي
ومدت كفى ظله في الرغام

وهذا أبو الطيب المتنبي يخرج من مصر حزيناً، والدنيا من حوله تحتفل بقدوم العيد، فطفق يردد أبياته المشهورة(١٤):

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك تجديد

---

(١٣) خفاجي: أحلام المساء، رابطة الأدب الحديث عام ١٩٨٨م ص١٨٣.

(١٤) ديوان المتنبي، تحقيق: د. خفاجي وسعيد جودة السحار ود. عبدالعزيز شرف، مكتبة مصر ١٩٩٤م، قصيدة «عيد» ص١٣٥.

أمـــا الأحـــبـــة فـــالبـــيـــداء دونهم
فليت دونك بيـــدا دونهـــا بيـــد

الإحساس بالفقد قاسم مشترك بين الشاعرين اللذين يتأسيان من قدوم عيد دون لقاء الأحباب. الخفاجي فقد الزوجة، والمتنبي فقد الأحبة. الفقد للأول سببه الموت، والفقد للثاني سببه الارتحال عن مصر. الاثنان يعبران عن اللوعة والأسى في قدوم العيد.

يأسى الخفاجي لحاله حين قدم العيد فيذكر زوجته التي فقدها ليلة العيد. والمتنبي ارتحل عن مصر والدنيا عيد، فأحزنه فراق الأحبة. الإحساس بالفقد أفقد الشاعرين البهجة بالعيد. ويستهل خفاجي قصيدته بنبرة حزن طاغية:

أنـا مـــــــــالـــي أنـا ولـلأيـام
منحـــتني العـــبـــوس بعـــد ابتـــســام

ويقول:

وخـــصـــام بين الزمـــان وبيني
كـــيـف يا قلب أصطلى بالخـــصـــام؟

بسبب الفقد عقد الشاعر نوعاً من الخصومة مع (الأيام)، أو قل مع (الحياة) التي يعيشها. هنا تجد تساؤله مبرراً: «كيف يا قلب أصطلى بالخصام؟». فمخاصمة الزمان لا تحقق الوئام فتنشأ القطيعة، أو كما نقول في مثل هذه الأحوال: تسود المرئيات في عين الرائي، ولا يعرف للأيام طعماً، وما إلى ذلك من أحاسيس ومشاعر تعبر في مجملها عن حالة الفقد، بما قد يستتبعها من نفور من الحياة أو الزهد فيها. يصور كيف اختطف المنون زوجته، فيقول:

ومـــشى زورقي وحـــيـــداً غـــريـــبـــاً
بين مـــــوج وعــــاصف في الظلام
والشـــراع القـــديم قـــد مـــزقـــتـــه
في الأعـــاصـــيـــر الهـــوج كف الرامي
مـــرحـــاً عـــاش ثم خـــر صـــريعـــاً
أسلم الروح في الصـــــراع الدامي

صورة فنية رسمها قلب معنى، أحس بغربته بعد فقد الحبيب، الذي تركه يصارع أمواج الحياة وحده، ثم يصف كيف خر صريعاً وأسلم الروح. في البيت الرابع، مقابلة موجعة بين إحساس الشاعر بالأمن مع الحبيب، وجنيه الآمال معه، وإذا «بأيدي الحمام» تصطفيه. الصورة المرسومة توحي لقارئها كأن الموت ملاك طائر يصطفى أحباءه فيختطفهم خطفاً! الصورة الفنية تشى بهذا.. «كان لي الأمن والمنى فاصطفته».. ففي هذا الشطر تعاقب حدثي سريع (كان فاصطفته).. فالمنية عاجلته كالصدمة المباغتة فضاعفت الإحساس بالفقد. هكذا الموت دائماً، يأتي على غير موعد، لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى، ولا نملك إلا التسليم والقبول بالقضاء. يرتد الإنسان غريباً في دنياه، يتأسى للفقد، تتأكد عبثية الحياة بمادياتها ومشقاتها، ويبقى صوت الشاعر يتغنى بآلام الحزن ومواجعه.. «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»[١٥] (صدق الله العظيم).

يتكرر صوت الآه الموجعة في قصائد عديدة، منها «كان حلماً» [١٦] التي كتبها في ذكرى مرور نصف العام على الفراق.. يترجم الإحساس بالفقد بأن دنياه صارت كئيبة، ولا يهنأ له العيش إلا في خيالات الحلم. لا يزال يذكر يوم الفراق.. يقول في أسى:

غـــابت الحلوة الرقـــيـــقـــة غـــابت
ونـهـــايات شـــمـــســنا للمـــغـــيـب
والهـــــــزاز الوديع وهو يغني
لحنة صـــار مـــشـــبـــهـــاً للنعـــيب

ديوان «دموع لا تجف» لطاهر أبو فاشا

ولد طاهر أبو فاشا عام ١٩٠٨م في دمياط. رحل إلى القاهرة والتحق بكلية دار العلوم عام ١٩٣٦م. صدر له عدد من الدواوين الشعرية، ولكن نشاطه الشعري قل بعدما التحق بالعمل في الإذاعة المصرية، حيث قام بإعداد البرامج

(١٥) سورة الرحمن، آية ٢٧.
(١٦) د. خفاجي: أحلام المساء، ص١٩٠-١٩٣.

وتأليفها، ومن أشهر أعماله الإبداعية حلقات «ألف ليلة وليلة» التي كانت تذاع في شهر رمضان من كل عام ولفترة طويلة، كما كتب العديد من البرامج.

يقول فاروق شوشة عن هذا الديوان الذي أعاد أبو فاشا إلى موهبته الشعرية بعد فترة انقطاع من عام ١٩٣٨م إلى عام ١٩٨٣م: «كان طاهر أبو فاشا بحاجة إلى زلزال شعوري ونفسي هائل حتى يعود من جديد إلى الشعر.

أهدى طاهر أبو فاشا ديوانه «دموع لا تجف»: إلى زوجته «نازلي المهدي» ويقع الديوان في ست وخمسين صفحة من القطع الصغير، تسبق قصائده التسع مقدمة بعنوان «في مواكب الدموع»، أبان فيها أنه منذ رحلت زوجته وهو يعاقر الدمع وحده. يقول عن الوفاة: ″لقد كان يوم الاثنين الحزين التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٩م حدا فاصلاً بين أنس نازح وحزن مقيم». ويصف نفسه بأنه إنسان يقبل على الحياة بمرح، إلى أن فارقته نازلي، فتحولت الحياة إلى هم ثقيل، ولم تصبح له غاية إلا انتظار الأجل المحتوم. ورغم أنه يتنسم نسمات الحب من أبنائه وأهله وأحبائه، إلا أنها لا تملأ فراغ النفس. يصف نازلي فيقول: ″إنها شجرة مباركة طيبة ترويها ضروع المحبة والرحمة″. كان يتمنى أن يكون يوم رحيله قبل يومها، ويصف رثاءه بأنه «بكاء حزين منغوم». يرى المراثي «أنقى ألوان الشعر الغنائي وأكثرها صفاء ودموعاً». كما يرى أن كل شاعر فقد زوجته لابد أنه بكاها في شعره. وديوان أبو فاشا يتميز بالمقدمة التي باح فيها بأحاسيس ومشاعر كان يمكنه تضمينها قصائده. هو الشاعر الوحيد الذي تصدرت المقدمة ديوانه الصغير في رثاء الزوجة. حين نفتح ديواناً ما، يهمنا بالدرجة الأولى أن ننصت إلى صوت شاعر. على أية حال، هكذا شاء الشاعر أن تكون المقدمة شعاعاً آخر يكشف نفسيته المصدومة.

وفي نهاية قصيدة «رويدك يا عيني» يتمنى أن يحتويهما رمس واحد:

فيا ليت أن الله حين قضى بما
قضاه، طواه فاحتوانا معاً رمس

وفي قصيدة «دموع لا تجف» يقبل أول عيد بعد وفاتها، فيأسى لحاله وقد شاه وجه الحياة وأوحش البيت من غير أنسها. كانت الظل الذي يفيء إليه، والأمن

لروحه، والقلب الكبير، والروض البهيج، واللحن المتناغم، والقصيد الشجي..

وبعد ما يكرر «كنت» ذاكراً صفاتها الحلوة، يقول:

وكـنـت وكـنـت وكـانـت لـنـا
عـوالـم مـن روحـك المـغـدق

التكرار أعطى للنص بلاغة، وأبان المكانة السامقة التي تبوأتها نازلى في حياتها. وفي ختام القصيدة ينعى حاله وقد تواترت ذكريات الأسى. يستهل قصيدة «يقولون لي» بحوار بليغ:

يقـولون لي: هلا تـزوجت بـعـدها
وهل بعـدها بعـد. وهل قـبلها قـبل

كلمات بسيطة حسم بها الأمر لصالح نازلي، فليس لها مثيل في نظره. وليس في قلبه امرأة سواها، قبل أن يعرفها، وبعد أن رحلت عن الدنيا.

في قصيدة «هذه الغربة» ينادي الراحلة بقوله «يا حزني».. هي ترقد في الرمس، بعيدة عن المنال، رغم قرب المزار!.. يناديه بكل ما كان جميلاً في حياتها:

يا نسـمـة الفـجـر التي نشـقـتـهـا
يا جنة الحب التي غـرسـتـهـا
يا نعـمـة الله التي فـقـدتهـا

تكرار النداء بمسميات مختلفة من شأنه ان يستدني الصورة الحبيبة إلى نفسه، ويتمثلها.. فنسمة الفجر، وجنة الحب، ونعمة الله.. صفات زهت بها نفسه، لأنها اقتربت به من طيف الحبيب الغائب.

وفي «حنين» يتوق لوادي الراحلين فيسأل:

ألا هل لـوادي الـراحـلين سـبـيـل..؟
ألـيـس لـلـيـل الحـائـريـن دلـيـل..؟

الحنين إلى وادي الراحلين، هو شوق لرؤية الحبيب في العالم الآخر. هنا لا يذرف الدمع، إنما يستبد به الحنين، البكائية هنا تتحول إلى غنائية فيها شوق للقيا الحبيب، وتوق لعالمه، على غير ما ألف الشعراء من سفح الدموع والبكاء على الراحلين. الغنائية هنا فيها شجن خفي، أو هو حزن مقيم في القلب. وما

يحن إليه يستحيل تحقيقه. الشاعر يعلم ذلك علم اليقين، لكن ما فتئ يتوق إلى هذا المستحيل!

في شعر طاهر أبو فاشا تجديد في استعمال اللفظ، وابتعاد عن القول المحفوظ والألفاظ المبتذلة، وإن اقتدى بمن سبقوه في ترديد كلمة «الكأس». له لغته الخاصة التي تميزه عن غيره، لغة سهلة متداولة، لكنها معبرة ودالة على الإحساس والمعنى، وهذه ميزة يتفرد بها عن غيره من الشعراء البكائين على فقد زوجاتهم. كما أن البناء الفني للقصيدة يجعل كل كلمة موظفة لهذا البناء، لا تستطيع أن تحذف كلمة أو سطراً. كل المفردات المستخدمة تسهم وتشارك في هذا البناء، لنجتزئ بعضاً من قصيدة :وكانت تحبني″ ليتأمل القارئ معي عملية البناء الفني في وصف الزوجة الراحلة، وتوجس بعض الناس، فإذا به يؤكد المعنى من غير نبرة عالية أو حادة أو اللجوء إلى حماس إنشائي. فالمعاني تنساب في وجداننا كالماء النمير، إن جاز التعبير!. يقول في الجزء الأخير من القصيدة:

صبيحة كطلعة الأماني
تنزل في الصميم من كياني
كهمسة النسيم في الجنان
تغمرني بالعطف والحنان
وظلها الفينان
ولا تقل علّي أو عساني
فهكذا كنت أراها
وهكذا كانت تراني

العمر ينتهي كما ينتهي الزيت في القنديل، ولا تبقى للشعلة الضئيلة سوى فترة قليلة وتنظفئ، فتجف الذبالة.. هذا ما عبرت عنه قصيدة «غروب»، إلا أنه أقحم «الكأس» بلا مناسبة.. «ولم يعد في الكأس إلا الثمالة، وما غناء الثمالة». وتأتي المقطوعات التالية، يتوجع فيها بالآه تحسرا على الشباب. الصورة أقرب إلى الإنشاء والتقرير منها إلى الصورة الشعرية التي ألفناها في قصائده الأخرى.

ديوان «لذكراك» لـ(رابح لطفي جمعه)

عنوان الديوان يضع إطاراً لقصائد رابح، فشعره ينظمه لذكرى غالية عزيزة إلى قلبه، وهو عنوان إحدى قصائد الديوان. الخطاب للزوجة نجده في عناوين أخرى: «إليك»، «صورتك»، «سقى الله زمانك بالفشن»، الفشن: إحدى مدن بني سويف، «كأني عرفتك قبل الحياة!»، «دعاني طيفك»، وله قصيدة يتحدث فيها عن «فضلى النساء»، نداءات الشوق والحنين تجل عن الحصر، وذكر حال البيت الذي صار قفرا، وزيارة قبرها، وأثر الوفاة عليه حتى أنه كان يتمنى أن يرحل قبلها أو معها.. إلى آخر هذه المعاني التي تواتي النفس الحزينة.

النظم يطاوع رابح في سلاسة وعذوبة. أملت عليه التجربة بمرارتها وآلامها صياغة فنية ليس فيها تصنع أو تكلف. يكتب الشعر كأنما تتقافز الأبيات من خاطره إلى الورق، كأن اليراع يسطر قصيداً محفوظاً. لا نجد كلمة في غير محلها، أو تعبيراً مستهجناً، أو افتعالاً غير مرغوب. ينقل للمتلقي تجربته من غير ادعاء أو زخرف، فإذا ما سطر بيان بليغ عبر أصدق تعبير عن مكنون الفؤاد.

يضم الديوان تسعاً وعشرين قصيدة، بالإضافة إلى مقطوعة من بيتين. نظم سبعاً منها حين ابتعد عنها في تنقلاته في سلك القضاء من بلد لآخر. ولما حان الفراق، أكمل ما بدأ في رثائها، فجمع بذلك بين الفخر بها زوجة مخلصة حانية، وبين الرثاء. عمد في الديوان إلى شرح المفردات وتوضيحها، حتى لا يلجأ القارئ إلى القواميس، ويتفرغ للفكرة أو المضمون، وللصورة الشعرية. قد يشي شرح الكلمات بأنه يستعمل غريب الألفاظ، لكنه غير ذلك، فلغته واضحة. وما لجأ إليه إنما هو إمعان في الإيضاح. نضرب مثالاً لهذه الطريقة في البيت الأول من قصيدة «داري»:

حنانيك مهلاً قف بنا أيها الساري

هنا رقدت زوجي رفيقة مشواري

المعنى واضح، إلا أنه زاده تفسيراً بقوله في الهامش: «الساري من السرى وهو السير عامة الليل والمشوارالمدى ويستعمل في المسافة التي يقطعها

الإنسان». وليس ثمة وضوح أكثر مما قيل.

في قصيدة «داري» يتوقف عند قبرها متلظياً بنار الحرمان وقد أمست «رهينة أحجار». ويطلب ممن يمر على قبرها أن يلقي عليها السلام. ويذكر داره التي كانت تشيع بالبهجة. تصدعت الآن بعد أن خلت منها، وأصبحت «رسوم طلول أو بقية آثار». والناس حوله في شغل عنه:

أرى الناس في شغل عن الناس شاغل
فلا الأهل أعوان ولا الجار للجار

ويتحدث عن مرضها الذي حير أمهر الأطباء. وماذا يفيد الطب أو تنفع الرقى أمام قدر محتوم، وطيفها يلازمه كل حين؟

أراها بأولادي فيهدأ خاطري
وقد كنت لولاهم أجن بأفكاري

ولا يرى تخليداً لذكراها إلا أشعاره. يكتب قصيدة "لذكراك" بعد مرور شهر على وفاتها يبدؤها بقوله:

ثلاثون يوماً يا حبيبة ولت
ولما يزل حزني عليك ولوعتي

ويقول:

لذكراك يا زوجي نظمت قصائدي
وما هي شعر بل دموعي وعبرتي

يتحدث عن الداء العضال الذي تمكن منها، متوسلاً إلى الله طالباً لها الشفاء. كم تمنى لو يستطيع أن يفتديها بنفسه، ثم يصف الحال بعد موتها، وذكراها التي لم تغب عن خاطره، ويذكر عطورها وملابسها وحليها التي مازالت في موضعها بصيوان الملابس:

خيالك في عيني وطيفك ماثل
وصوتك في آذني كأعذب نبرة

ويقول مستحثاً الأيام أن تمضي بسرعة:

تقربني الأيام منك لنلتقي
فيما دورة الأيام هيا سراعاً

سألقاك يوماً حين ترسو سفينتي
وألقي بمرساتي وأطوي الشراعا

لا حيلة له إلا أن يردد في قصيدة "الحياة والفراق" معبراً عن صعوبة الحياة بدونها:

كنت لي ذخراً في نهاية عمري
لم يعد لي بعد الرحيل بقاءً

النماذج الشعرية حول افتدائها بنفسه، أو تمني الموت للحاق بها نماذج كثيرة.

من المعاني التي اختص بها ديوان رابح لطفي جمعة، الحائز على جائزة البابطين بعيد وفاته، ما صوره عن نظام البيت الذي تأثر تأثراً بالغاً برحيلها. فهي عماد البيت وركنه الركين. وهو لا يكتفي بذكريات العهود الجميلة قبل أن تفارقه، لكنه وجد الدار تقوضت أعمدتها. فماذا يكون البيت بعد أن ينهار البنيان. الأمثلة كثيرة. نقتطف بعضاً منها في الأبيات التالية..

وفي قصيدة «كأني عرفتك قبل الحياة!» يقول:

تصدعت الدار التي كنت ركنها
وكنت بهاها في الزمان الجميل

يقول عن الدار أيضاً:

وأقوت نواحيها وأقفر ربعها
وصارت بعيني كومة من طلول
تصفر فيها الريح عند هبوبها
وتلوي بأستار بها وسدول
وتصفق أبواباً يئن صريرها
وتذرف من دمع عليك هطول

الأبيات الثلاثة السابقة من أقوى ما عبر الشاعر بها عن حال داره، لما فيها من روعة التعبير عن النفس التي تأثرت بحال الدار. فمن وصف للقفر الذي حل بالدار، حتى تراءت في عينيه "كومة من طلول"، وهناك الريح تصفر وتهتز لها الأستار، وهناك صرير الأبواب، التي راحت هي الأخرى تذرف الدمع على فراق



ربة البيت!هذا المزج بين الطبيعة وأحاسيس البشر جعل الأبيات ترقى إلى قمة الأداء الشعري.

مأساة الموت عند رابح لطفي جمعة تتجسد في أنها تركته في وحدته على كبر. خلفته في الدار -البيت- وحيداً يصطلي نار العزلة عمن حوله، وإن كان طيفها يجده في كل ما حوله من مرئيات.

